.B

محمد مؤسس الدين والدولة العربيين ▪ الاسلاميين

الاسلام، دين، أمة ودولة تيوقراطية| إلهية|

سوف نتطرّق الآن الى الديانة الإسلامية ومبادئها وشرائعها فضلاً عن مؤسس الإسلام بعيداً عن الإنتقاد أو الإطراء كما فعلنا في المجلدات السابقة بالنسبة الى المسيحية واليهودية والزرادشتية وسائر الديانات التي ولدت في منطقة الشرق الأدنى. وسوف نحاول عرض الأحداث بطريقة موضوعية وإظهار تأثيرها المباشر أو غير المباشر على تطور مجتمعات الشرق الأدنى وتغيراتها إبتداءً من الفتح العربي ـ الإسلامي.

I. النبي محمد، حياته، عقيدته الدينية وأعماله ٥٧٠ ـ ٦٣٢

تقسم حياة النبي محمدﷺ العامة إلى مرحلتين متميزتين: الأولى وهي دينية في جوهرها تبدأ من العام ٦١٠ وتدور حتى العام ٦٢٢ في مكة، مسقط رأسه، والمرحلة الثانية، وهي الأهم، تبدأ بهجرته وإستقراره في المدينة العام ٦٢٢ وتستمر حتى وفاته العام ٦٣٢. وخلال هذه المرحلة الثانية تم تأسيس الدين الإسلامي وتحولت شبه الجزيرة العربية إلى إعتناق الإسلام وخضعت لسلطة الرسول محمدﷺ الدينية والسياسية

١ ـ محمدﷺ في مكة، مبشر ديني

أ ـ طفولة محمدﷺ وشبابه

ولد النبي محمدﷺ (وإسمه يعني بالعربية المكرّم أو الجدير بالمديح) في مكة وهو ينتمي إلى أسرة بني هاشم العربية وهي عشيرة من قبيلة قريش العربية الواسعة النفوذ والتي كان لرؤسائها حق السيادة على المركز الديني والتجاري الكبير في مكة. غير أن أسرة النبيﷺ المقبل أي بني هاشم لم تكن تحسب من الأسر المرموقة في مدينة مكة لا بل كانت فقيرة في مدينة مشهورة بتجارتها، وحيث كانت المكانة الإجتماعية تقاس بالثروة، مما لم يكن عاملاً مُسهّلاً لرسالة محمدﷺ ولا لتقدمه في سلم السلطة.

عاش محمدﷺ الذي كان يتيم الأب منذ حداثته في الصحراء وسط البدو حتى سن الخامسة من عمره. ولما عاد إلى مكة فَقَدَ تباعاً أمه أمينة ثم جده لأبيه عبد المطلب. وحوالي الثالثة عشرة من عمره لم يعد له من سند إلا عمه أبو طالب. فقد إضطر للإيفاء بحاجاته المعيشية أن يعمل راعياً ثم قائد قوافل. وأخيراً عندما بلغ العشرين من عمره دخل في خدمة أرملة غنية من مكة هي خديجة التي تزوجها بعد ذلك بخمس سنوات رغم أنها أكبر منه سناً بكثير.

ب ـ الوحي الأول(٦١٠)

كان محمدﷺ قد تجاوز الأربعين من عمره عندما تلقى وحيه الأول. وهناك تأثيرات مختلفة قد تكون أدت إلى تأخر دعوته. فحوالي ذلك العصر كانت العبادة القديمة للآلهة الوثنية المحلية قد فقدت كل حيويتها. وكانت العلاقات مع سورية اليونانية والحبشة المسيحية ووجود مجموعات عديدة من اليهود والمسيحيين في الحجاز ونجد قد نشرت في الجزيرة العربية بعض القصص التوراتية وبعض المبادىء المسيحية واليهودية. وكانت فئة من الأشخاص المعروفين بالحنفاء يصبون إلى دين أكثر سمواً وإلى توحيد إلهي حقيقي.

وكان هؤلاء يمتنعون عن تناول الخمر وتقديم الذبائح الدموية ويقومون بممارسات صوفية. وكان في عداد هؤلاء المجددين الذين لم يكونوا ينتسبون إلى طائفة محددة، ورقة بن نوفل إبن عم خديجة زوجة النبيﷺ والذي سيلعب دوراً هاماً في قصة بدايات النبيﷺ . وكان محمدﷺ نفسه أيضاً عندما تلقى وحي كلمة الله للمرة الأولى قد إنكب على تطلعات وممارسات شبيهة بتطلعات الحنفاء وممارستهم.

ج ـ تبشيراته الأولى

لم تتخط تبشيرات محمدﷺ في السنوات الأولى من رسالته النبوية دائرة أصدقائه وأهله الحميمين. وكانت تنحصر بتأكيد الوحدة الإلهية تأكيداً مطلقاً: فالله هو الخالق وسيد كل شيء الأعظم وأما الإنسان فهو الشيء المخلوق وعلاقاته بربه هي علاقات العبد مع سيده، وإن الفقراء والأيتام تجب مساعدتهم.

ثم وسع دائرة تبشيره الديني وقرر مخاطبة جمهور مواطنيه. وقد واجهته الأرستوقراطية التجارية في مكة أولاً بلامبالاة ساخرة. وتوضحت أصول عقيدته من خلال نضاله وإتخذت طابع الجدل. ثم تأكد بوضوح طابع رسالته الإلهي: لقد أنزل الله القرآن بفمه. فتوعد الكفار والهازئين بالعقاب السماوي وأخيراً هاجم دين مواطنيه القومي علناً.

وكان دين العرب في ذلك العصر، كما رأينا، مزيجاً أو تجمعاً من الآلهة من كل نوع. كانت الكعبة مزارهم المشترك كما كانت مكة المخزن العام بالنسبة إلى جميع قبائل وسط الجزيرة العربية. وكان الحج السنوي يستقطب

إليها قوافل الحجاج والتجار من كل أنحاء شبه الجزيرة. وإلى جانب عبادة الآلهة القبلية حامية قبائل مكة وجوارها كانت هناك عبادة الله وهو الإله بكل معنى الكلمة الذي كان يعبده الحنفاء الذين أشرنا إليهم.

ولم تكن التقوى الدينية هي التي دفعت سادة مكة إلى الدخول في نزاع مع التوحيد الإلهي المتشدد الذي كان يدعو إليه النبي محمدﷺ . فالدين المتعدد الآلهة الذي كان يؤمن به هؤلاء العرب، وهو تقليد موروث عن الجدود، كان مؤسسة سياسية قبل أي شيء آخر. فقبائل مكة كانت تشكل مع القبائل المجاورة لها نوعاً من الكونفدرالية أو الإتحاد الذي كانت آلهته الشفيعة في الكعبة هي رمز ذلك التحالف الذي كان يجمع مكة بجيرانها. لذا فإن مهاجمة محمدﷺ لآلهة وطنه كانت تشكل خطراً سياسياً وإجتماعياً وتهديداً لوحدة القبائل. وهذا هو السبب الذي أثار أرستوقراطية مكة للوقوف ضد الرسول.

وبما أن محمداًﷺ هو أحد أبناء قبيلة بني هاشم فقد حظي بحماية شخصية ضد عنف أعدائه. وبرغم أن بني هاشم إعتنقت قلة منهم فقط الإسلام إلا أنهم كانوا قادرين على إشعال حرب أهلية في مكة لو أن محمداًﷺ تعرض لأي إعتداء شخصي عليه. فالعشيرة كانت ملزمة بالذود عن أي فرد من أبنائها عند تعرضه لأي إعتداء. ولكن إضطهاد القريشيين أخذ يمارس ضد المؤمنين الجدد الذين لم يكونوا ينتمون إلى مجموعة عائلية قوية. ولهذا السبب، وحوالي ذلك العصر، (٦١٥ ـ ٦١٦) سافر عدد من هؤلاء المضطهدين، بناء على مشورة النبيﷺ ، ولجأوا إلى الحبشة في كنف ملكها نيجوس.

ومع ذلك حصلت إهتداءات جديدة إلى الدين الجديد كان من أشهرها إعتناق عمر بن الخطاب لهذا الدين والذي سيصبح فيما بعد الخليفة عمر.

ومن جهة أخرى فإن التقدم الذي حققه الإسلام أثار الخلاف بين العديد من الأسر. فرؤساء الأسر الرئيسية في مكة راحوا يتجنبون مجموعة بني هاشم ومنعوا أية علاقة مدنية أو تجارية معها. وأخيراً فإن النبيﷺ عانى تباعاً من فاجعتين تمثلت الأولى بوفاة زوجته المخلصة خديجة والثانية بوفاة عمه وحاميه أبي طالب اللذين ماتا بفارق بضعة شهور من الزمن. وبعد عشر سنوات من النضال والجهود كانت محاولة إصلاحه الدينية ما تزال عرضة للخطر، وهناك قلة فقط من مواطنيه تتجمع حوله.

وخوفاً على رسالته، قرر محمدﷺ إخراج الإسلام من مكة والإنتقال مع أتباعه للإقامة في يثرب(المدينة) وهي المدينة المنافسة لمدينة القريشيين. فوجد بين سكان يثرب التي سميت المدينة لاحقاً الأنصار الذين سوف يؤمنون نجاح الدين الجديد.

غادر محمدﷺ مكة، مسقط رأسه، العام ٦٢٢ متجهاً إلى يثرب، يصحبه أبو بكر الملقب بالصديق والذي سيصبح خليفة فيما بعد. ويحدد هذا الحدث المعروف بالهجرة بدء المرحلة الثانية من حياة محمدﷺ.ومنذ ذلك التاريخ أصبحت يثرب تدعى مدينة النبيﷺ أو بإختصار المدينة المنوّرة.

٢ ـ محمدﷺ في المدينة المنورة، رئيس ديني ورئيس دولة (٦٢٢ - ٦٣٢)

أ ـ محمدﷺ رسول ومشترع وسياسي

وبعد الهجرة توسع الدين الإسلامي الجديد وإقترن بأفكار جديدة أضيفت إلى بداياته المكية وهذه الأفكار الجديدة التي فرضتها ضرورات البيئة والطابع المختلف الذي إتخذه النضال،ظهرت في تعاليم النبيﷺ .

فوجد محمدﷺ نفسه مضطراً لتنظيم مجتمع وإدارته. وبدءاً من ذلك العهد غدا رسولاً ومشترعاً وسياسياً ومحارباً. وكان «المهاجرون» والأنصار (من تحالفوا معه من أهل المدينة وإعتنقوا الإسلام) تشدهم بعضهم إلى بعض عهود الأخوة.

وفي المدينة وجد محمدﷺ نفسه أمام عدد كبير من أتباع الديانات الموحدة كالمسيحيين وبخاصة اليهود. فأمر أتباعه بإقامة الصلاة خمس مرات في اليوم وصلاة واحدة مشتركة يوم الجمعة وليس يوم السبت. وفرض صوم كل شهر رمضان المبارك وليس يوماً واحداً فقط كما يفعل اليهود.

بيد أن العلاقات بين المسلمين واليهود سرعان ما ساءت. ومن بوادر ذلك العداء الناشىء بين المسلمين واليهود أن المسلمين لم يعودوا يتجهون إلى القدس حين إقامة الصلاة وهي المدينة المقدسة في اليهودية كما كان يفعل حتى ذلك الوقت المسلمون الأولون بل صاروا يتجهون نحو مصلى الكعبة المقدس الذي بناه إبراهيم في مكة. وفرض محمدﷺ على أتباعه الحج إلى الكعبة

والأماكن المقدسة في مكة وهي تقاليد موروثة عن أيام الوثنية. كما أمرهم بالجهاد، أو الحرب المقدسة، والذي لم يكن يهدف في ذلك العصر إلا إلى إستعادة مقدس الكعبة المكرم من مواطنيه القريشيين الكافرين برسالته.

وراح محمدﷺ يبسط سلطته شيئاً فشيئاً على أهل المدينة كلهم،مسلمين وغير مسلمين. وإن معظم التشريعات أو الأنظمة المدنية في القرآن الكريم تعود إلى تلك الفترة: الزواج والطلاق والدية والوصاية والإرث، إلخ... فأصبح الحكم الأعلى في كل المنازعات والرئيس المطلق للدولة المدينية الصغيرة: المدينة. لكن مكة ظلت هدفه الأسمى الذي لا بد من بلوغه. فعن طريق إحتلال مكة يمكنه أن يسيطر على كل الحجاز وإخضاع كل جزيرة العرب لقوانين الإسلام. ولتحقيق هذا الهدف فإن محمداًﷺ باشر فوراً عمله.

ب ـ نصر بدر(٦٢٣)

ومنذ العام ٦٢٣ نظم محمدﷺ حملات عديدة ضد القوافل المكية، أشهرها وأنجحها تلك الحملة التي وجهها ضد القافلة المكية التي تتجه كل عام إلى سورية والتي قادها في تلك السنة أبو سفيان الرئيس الأعلى للقريشيين. ووقعت المواجهة قرب بدر وهي بلدة صغيرة تقع على طريق المدينة ـ سورية وهزم أهل مكة شرّ هزيمة وقتل منهم سبعون رجلاً في حين فقد النبيﷺ أربعة عشر من أنصاره غير أنه وضع يده على غنيمة كبيرة (٦٢٣). إن هذا النصر العسكري الأول الذي ستليه حملات أخرى من النوع نفسه ثبت وضع الرسول وزاد من شهرته وموارد الطائفة المسلمة.

ج ـ هزيمة أحد (٦٢٥)

إن أهل مكة، وقد أقلقتهم إنتصارات خصمهم، عزموا على إعادة الأمن إلى الطرق التجارية والثأر لضحاياهم الذين سقطوا في موقعة بدر. فجمعوا حوالي ٣٠٠٠ مقاتل راجل و٢٠٠ فارس وساروا بإتجاه المدينة تحت قيادة أبي سيفان. ولاقاهم النبيﷺ بنحو ألف مقاتل وإتخذ موقعاً له عند سفح جبل أحد على بُعد بضعة كيلومترات شمال شرق المدينة. فأدى إندفاع المسلمين في البدء إلى تراجع القريشيين. لكن خالد الذي سيقيض له فيما بعد فتح سورية هاجم المسلمين فجأة على رأس الخيالة المكية مما دفع بالمسلمين إلى الهرب. فأصيب حمزة عم النبي إصابة قاتلة في هذه المعركة وجرح محمدﷺ نفسه (٦٢٥).

د ـ حرب الخندق (٦٢٧)

إن هـذه الهزيمـة التي حولت النبيﷺ مـوقتاً عن مكـة أدارته نحـو شعوب الحجاز ونجد التي حاول إستمالتها إلى الإسلام. فأرسل بعثة من الدعـاة لهدايـة القبائل البدوية في تلك البـلاد، لكنهم قتلوا. فنظمت عنـدئذ حمـلات عاد منهـا المسلمـون حاملين معهم غنـائم كبرى. وفضـلاً عن ذلك طُـردت قبائـل يهوديـة من المدينة وإنسحبت إلى سورية مخلفة كل ثرواتها للنبيﷺ.

إن الإنتصـارات التي حققها الـدين الجديـد أدت إلى تشكيل تحـالف كبير ضـد النبي وأتباعـه إنضوى إليـه إلى جانب أهـل مكة قبـائل عـديـدة كبـرى في الحجاز. وبعدما حاصر المتحالفون المدينة طيلة خمسة عشر يومـاً عادوا وتـراجعوا عنهـا (٦٢٧). ويطلق المؤرخـون العرب عـلى حصـار المـدينـة هـذا إسم واقعـة الخنـدق بسبب الخنـدق الكبـير الـذي أمـر النبي بحفـره حـول المـدينـة والـذي أوقف جهـود العدو الـذي كان يفـوق المسلمين عـدداً. وبدءاً من ذلـك الحين لم تعـد رسالـة النبي إلا مكللة بالنجـاح. وآخـر قبيلة يهوديـة كـانت قـد بقيت في المدينة تمت تصفيتها وإعتنقت قبائل عديدة الإسلام.

هـ ـ خضوع قبائل الحجاز ونجد (٦٢٩).

إن النبي، متـابعاً إنتصـاراته، عـاد إلى التفكير بمشـروعـه المفضـل: وهـو إحتلال مدينة مكة، مسقط رأسـه، لجعلها عـاصمة دولتـه ولتحويـل الكعبة إلى مـركز للدين الجـديد. وفي العـام ٦٢٨ عقد إتفـاقاً سلميـاً مع أهـالي مكـة تمت المـوافقة بمـوجبه عـلى تعليق الحرب بـين الجـانبـين طيلة عشـر سنـوات. وصـار يسمح للمسلمين بزيارة مصلى مكة خلال ثلاثـة أيام عـلى ألا يكون في حـوزتهم سـلاح غير سيـوفهم. وفي السنة التـالية عـلى عقد هـذا الصلح تخلى اليهـود عن ثروات مؤسساتهم في شمال الجزيـرة العربيـة للمسلمين. وأعلنت قبائل الحجاز ونجد خضوعهـا ودخلت في الإسلام. وفي ذلـك التاريـخ أرسل محمـدﷺ وفوداً إلى الأمبـراطـور هيـراقليـوس ونيجوس الحبشة ووالي مصـر القبـطي (المقـوقس) وكسـرى الثاني ملك الفـرس وأمراء غسـان واليمـامـة العـرب داعيـاً إيـاهم إلى إعتناق الدين الجديد.

و ـ خضوع مكة (٦٣٠)

وفي العـام السابـع على الهجـرة (٦٢٩) قام النبيﷺ يصحبـه آلاف عـدة من المسلمين بالتوجه إلى مكة لزيـارة الكعبة بحسب الإتفـاق المعقود مـع أهلها.

وقد تركت هذه الزيارة وسلوك المسلمين المستقيم في أهالي مكة تأثيراً شديداً. فإعتنق كثيرون منهم الإسلام وعلى رأسهم أشهر رجلين سيلعبان عما قريب دوراً بارزاً في نشر هذا الدين وهما خالد بن الوليد، فاتح سورية المقبل، وعمرو بن العاص، فاتح مصر المقبل. وبعدما زادت سلطة النبي وشهرته إزدياداً كبيراً، عاد إلى مشروعه القديم وهو إحتلال مكة.

وبعدما حشد القوة اللازمة لتلك المعركة أفاد من أول فرصة لنسف إتفاق الصلح المعقود مع القريشيين. وسار الجيش المسلم في العام الثامن للهجرة (٦٣٠). وإذ رأى أهالي مكة أن لا فائدة من المقاومة من جانبهم عمدوا إلى التفاوض مع المهاجمين بأمر إستسلام المدينة وأرسلوا إلى النبيﷺ لهذا الهدف العباس عم النبي وأبا سفيان. ودخلت جيوش المسلمين مكة من غير مقاومة. ومنعهم محمدﷺ من القيام بأية عملية نهب لكنه حطم أصنام الكعبة. ودخل أهالي مكة جماعات كبيرة في الإسلام وكذلك فعلت آخر القبائل الرافضة في الحجاز.

وبفضل روابط القربى بين محمدﷺ والأرستوقراطية القريشية، فقد فازت هذه الأرستوقراطية التي حاربته فترة طويلة بالنصيب الأكبر في طائفة المؤمنين وفي مجالس الدولة الجديدة. هكذا عُين معاوية، والذي سيصبح خليفة لاحقاً وهو إبن أبي سفيان زعيم القريشيين وخصم النبيﷺ السابق، في عداد الكتاب ممن كلفوا بتدوين القرآن الكريم الموحى به. وبعد ثلاثين عاماً على موت محمدﷺ أعطت أسرة أبي سفيان للإسلام، عن طريق معاوية الذي أصبح خليفة، سلالة الأمويين فاستعادت في الأمبراطورية الإسلامية مركز الصدارة الذي كانت تحتله في مكة الوثنية.

ز ـ حملة نحو الشمال (٦٣١)

وبعدما أصبح محمدﷺ سيد وسط الجزيرة العربية، فإنه مشى على رأس ٣٠,٠٠٠ رجل نحو الشمال (٦٣١). ولدى إقترابه إنسحب اليونانيون إلى سورية. إن محمداًﷺ الذي لم يكن ينوي المخاطرة عبر رمال الصحراء السورية، إنكفأ بجيشه نحو المدينة بعدما خضعت له الشعوب المجاورة لخليج العقبة، وكان معظمها من المسيحيين الذين لم يلزموا بإعتناق الإسلام كنظرائهم في الجزيرة العربية. وكان على أثر تلك الحملة أن نزلت الآية القرآنية التي نظمت بعدها وضع الموحدين من غير المسلمين أو «أهل الكتاب» (المسيحيين واليهود) في الدول الإسلامية. فحتى ذلك الحين كان على المهزومين من غير

تمييز إعتناق الإسلام أو التعرض للنفي. لكن بعد ذلك التاريخ صار الإسلام خارج الجزيرة العربية يميز في المهزومين بين الوثنيين وأهل الكتاب فيلزم الأولين بإعتناق الإسلام أو الهلاك وإكتفى مع أهل الكتاب بإلزامهم دفع جزية تاركاً لهم حرية ممارسة دينهم.

ح ـ محمدﷺ سيد جزيرة العرب (٦٣١)

وفي نهاية العام التاسع من الهجرة (٦٣١) خضعت سائر قبائل الحجاز المعارضة وإعتنقت الإسلام أسوة بشعوب عُمان والبحرين واليمن.

إن الدولة العربية ـ الإسلامية الجديدة، التي تكونت بشكل مركزي جداً، كانت تضم تحت سلطة النبي التيوقراطية، والذي كان يقيم في المدينة، مجمل شبه جزيرة العرب تقريباً بإستثناء العربية الصخرية وصحراء سورية اللتين ظلتا تحت سلطة اليونانيين البيزنطيين. وللمرة الأولى في تاريخها توحدت الجزيرة العربية تحت سلطة مركزية واحدة ومطلقة. وكانت دولة محمدﷺ العربية، كسائر دول الشرق القديم، مملكة تيوقراطية يحتل فيها الدين المقام الأول. وفي غياب الوطن الجغرافي الواحد الذي لا يعرف بدو الصحراء معناه فإن الشعور الديني وعبادة الإله الواحد والمشترك لجميع المؤمنين، سوف يجمع بعد ذلك هذه القبائل العربية التي كانت قبل محمدﷺ تشكل كل واحدة جمهورية مستقلة صغيرة. بيد أننا سنرى، وخلال السنين التالية، أن هذا الشعور الديني لن يكون فعالاً بما فيه الكفاية لكي يبقي على وحدة سياسية متينة بين مختلف البلاد الإسلامية ولا حتى بين دول شبه الجزيرة العربية نفسها.

ط ـ موت محمدﷺ (٦٣٢)

ولم يكتب للنبي أن يعيش ليرى نهاية الحركة التي أطلقها. وكما أن موسى الذي صنع الأمة الإسرائيلية في صحراء جنوب فلسطين، أدركه الموت قبل أن يطأ «أرض الميعاد» التي وعد الله بها إبراهيم، هكذا فإن محمداً مؤسس الأمة والدولة العربيتين الإسلاميتين وافته المنية قبل أن يرى أراضي الهلال الخصيب الجميلة والمزروعة. فقد توفي محمدﷺ العام ٦٣٢ بعدما أصيب بحمى مفاجئة لم تمهله لتعيين خلفه.

وترك محمدﷺ لدى موته دولة قوية وموحدة وجيشاً مندفعاً ومستعداً لكل

المعارك. وسيعرف الخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم بعد النبي أن يفيدوا من ذلك الجيش لفتح العالم المتحضر في ذلك العصر.

٣ ـ شخصية محمدﷺ

إن محمداًﷺ، شأنه شأن كبار المصلحين الدينيين، «كان يتمتع بعبقرية على مستوى عال في التنظيم الاجتماعي والديني» (مونتي). وكان واقعياً لم يعرف التعصب وقصر النظر على الإطلاق ولم يكن مستبداً متشبثاً. وكان ذكاؤه المتفوق والدمث ومعرفته العميقة بالنفس البشرية وإيمانه المخلص برسالته،هي العوامل الأساسية لقدرته الغريبة على إكتساب الناس والسيطرة عليهم.

ويرى بولان فيلييه أن محمداًﷺ هو «مشترع مستنير أراد إيجاد دين حكيم يحلّ محلّ مبادىء اليهودية والمسيحية المريبة. وأما سافاري فيرى فيه أحد هؤلاء الرجال الخارقين الذين يطفون من حين إلى آخر فوق سطح الكرة الأرضية ويقلبون الأوضاع السائدة فيها ويدفعون الناس وراء إنتصاراتهم. . . وأما كارلايل فيقول إن محمداًﷺ كان مخلصاً، ككل رجل عظيم، لأنه يخضع لقانونه الداخلي. إن رجلاً كهذا لهو رجل عظيم وهو أيضاً رجل يتمتع بشخصية فريدة. إنه رسول يحمل إلينا أخباراً من المجهول واللامحدود وسواء أطلقنا عليه نبياً أم شاعراً فنحن نشعر بأن كلماته ليست كلمات بشرية»[1].

وأما غودوفروى دومومبين في كتابه محمدﷺ فيقول: «كان لمحمدﷺ شخصية فريدة.فهو يظهر كشخصية متفوقة على البشرية السامية في عصره. . . وهو يبدي في الوقت نفسه فهماً ذكياً للناس وللأمور مع ميل للإختلاط بهم برغم حبه للوحدة والتأمل، وحساً بالواقع يتيح له بحسب الظروف وبحركة لاشعورية أن يتخذ قراراً سريعاً وأن يترك الحكم لله. . . وتطري الأحاديث على نيله من الله الفضيلة البالغة التقدير لديهم لإنها إستثنائية عندهم وهي رباطة جأشه وسيطرته على نفسه، وإتزانه وحلمه. . . ويعترف القرآن للنبيﷺ بسعيه إلى العدالة الإجتماعية. . . وكان الجميع يعجب ببساطة حياته ومواقفه وحسن إستقباله. . . وكان يظهر نوعاً من التحفظ والإحتشام مما يجعله بعيداً عن الخصومات وأحاديث السوء. . . (ولم يكن يسعى) إلى نيل حب الناس بل إحترامهم. . . وفي الحياة العامة نراه يظهر طيبة وعطفاً وتفانيا وبرا وكرما وعفواً عن الإساءة والشتم. ... لم يكن محمدﷺ لاهوتياً بل نفساً سامية وعقلاً فريداً».

1 T. Andrae, *op. cit.*, p. 172, 173, 175.

بالنسبة إلى تي. اندريه: إن إخلاص محمدﷺ لا ريب فيه إطلاقاً «فمن الصعب أن يكسب إنسان ما ثقة أمثاله بشكل غير محدود تقريباً وأن يؤثر بمثل هذه القوة على محيطه إذا لم يكن لديه هو نفسه إيمان جاذب ومقنع برسالته. . . وقد رفض محمدﷺ دوماً كل محاولة للظهور كمجترح معجزات. وحارب بقوة كل خرافة كانت تلصق بشخصه وكان دائماً يقول بأنه إنسان مثل سائر الناس. وكون أنه قاوم بشدة مغريات تجربة الكبرياء والإعتداد بالنفس ونظراً لتفوق وضعه، فإنه بدا شخصية ذات خلقية كبيرة. . . فهو عاش ببساطة فائقة ضارباً المثل بطريقة عيشه والتقشف المعتدل الذي دعا إليهما الناس من خلال رؤاه»[2].

وأما الخلقية الجنسية عند النبيﷺ والتي تصدم المسيحيين فلا ينبغي النظر إليها من زاوية المفاهيم الموروثة عن الخلقية المسيحية والتصوف القديم بل من زاوية الأخلاق وظروف العيش التي كانت سائدة في شبه جزيرة العرب في القرن التاسع. فالمجتمع العربي السابق للإسلام لم يكن يعير العفة أو الزواج الأحادي أي أهمية عليا. ومن جهة أخرى كانت المرأة تعتبر كائناً من مرتبة أدنى يشتريها زوجها من أهلها «وأما تعدد الزوجات فكان شائعاً وكان الرجل يتزوج ما طاب له من النساء وكان الطلاق يتم بسهولة. وكان الرجل يعير زوجته أحياناً إلى رجل آخر وبخاصة إذا كان شجاعاً أو ذا شهرة كبرى لتنجب منه أولاداً من جنس طيب، إلخ. . .»[3].

وفي هذا المجال فإن تشريع محمدﷺ حقق تقدماً كبيراً بالنسبة إلى أزمنة ما قبل الإسلام. فقد لجم الحرية الكبيرة في الشأن الجنسي ورفع من قَدْرِ المرأة. وأصبحت موافقة المرأة على الزواج محمية. والمرأة المتزوجة بات بمقدورها أن تمتلك مهرها أو أن تدينه. وأصبح عدد الزوجات الشرعيات المسموح به أربعاً تجب معاملتهن بالعدل والسوية. وإذا كان الرجل يخشى أن يكون عاجزاً عن العدل بينهن فينصحه القرآن الكريم بألا يتزوج أكثر من واحدة.

وأما بالنسبة إلى التناقضات التي يلاحظها بعضهم لدى محمدﷺ فيمكن تفسيرها من واقع أنه كان قائد نفوس وزعيماً دينياً في آن يدعو إلى معتقد إيماني

2 T. Andrae, *op. cit.*, p. 177, 178, 179, 184.
3 T. Andrae, *op. cit.*, p. 188.

جديد، وقائد بشر ورئيس دولة عليه مطابقة تصرفاته مع مختلف الظروف. وفي هذا الدور المزدوج الذي كان لمحمدﷺ فإن الوحي الذي كان يحرك نشاطه أعطى حياته جوهر وحدتها.

II. اسس المبادىء والشريعة الاسلامية: القرآن الكريم والسنة والفقه

قبل التطرق إلى المبادىء والشريعة التي أعلنها محمد لا بد أولاً من الإشارة إلى المصادر التي يعتبرها المسلمون أنها تشكل أسس العقيدة الإسلامية.

«فالعقيدة الإسلامية تكونت من تجربة المائة والخمسين سنة الأولى التي تغير خلالها الفكر الإسلامي وتوسع»[1].

وبدءاً من القرن العاشر شرع علماء الشريعة الإسلامية «محاولتهم في عرض اسس الشريعة الإسلامية جوهريا وبإختصار» (ماسيه).

ففضلاً عن القرآن الكريم، وهو القاعدة الأساسية للإسلام، ثمة مصادر أخرى متصلة نوعاً ما بالنبيﷺ وتشكل أيضاً القواعد القانونية المتمتعة بقوة القانون. ذلك أنه، وبعد غياب النبيﷺ الذي كانت وفاته نهاية الوحي النبوي، فإن الطائفة الإسلامية التي توسعت وتغيرت بفعل الفتوحات إضطرت إلى مواجهة مشاكل عديدة لم يلحظها القرآن الكريم. ومن أجل حل تلك المسائل في الإطار القرآني إستعين بالمصدرين التاليين:

١ ـ السُنة النبوية أي أعمال الرسولﷺ وأقواله (الحديث).
٢ ـ الفقه الإسلامي أو علم القانون الإسلامي.

1 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 107.

١ ـ القرآن الكريم أو كتاب الله

أ ـ القرآن الكريم كلمة الله المنزلة بلسان عربي

إن القرآن الكريم ومعناه باللغة العربية القراءة هو كتاب الإسلام المقدس. ويرد ذكره أحياناً في النص الموحى به إلى محمدﷺ تحت إسم (الكتاب)، وهذا التعبير يساوي تسمية التوراة باليونانية وهي كتاب بمعنى كتاب مقدس.

وبالنسبة إلى المؤرخين الدنيويين فالقرآن هو مجمل القواعد التي نصها محمدﷺ لتكون قاعدة للدين الذي أسسه. وأما بالنسبة إلى المسلمين فالقرآن هو كلام الله نفسه الذي أنزله على محمدﷺ بواسطة الملاك جبريل أو جبرائيل. ودور محمدﷺ هو بمثابة دور وسيط أو رسول بين الله والناس. وتتولد نتيجة هامة عن هذا الإعتقاد. فبإستخدامه لغة الحجاز العربية فإن الله تعالى الذي لم يستطع التعبير عن فكره إلا من خلال أنقى اللغات منح هذه اللغة قيمة تامة. فمن الوجهة الأدبية والصرفية فالقرآن الكريم نص يتمتع بفصاحة تامة. وبالنسبة إلى المسلمين «فإن الميزة المعجزة للقرآن تكمن في أسلوبه الذي لا يتمكن أحد من تقليده سواء من الأنس أو الجن»[٢].

وإن محمداًﷺ بإستخدامه لغة الحجاز العربية في كتابة القرآن الكريم جعل منها اللغة العربية الكلاسيكية وأسهم كثيراً في تحديد شكلها المكتوب. «وقد تم مثل هذا وبشكل مماثل في تثبيت لغات أخرى بحسب دين آخر هو الدين المسيحي: بالنسبة إلى اللغة الألمانية إعتمدت ترجمة لوثر للكتاب المقدس، وفي اللغة الفرنسية إعتمد كتاب كالفان «المؤسسة المسيحية»[٣].

ب ـ كتابة نص القرآن الكريم

وتعتبر السُنّة الإسلامية أن القرآن الكريم كتاب أزلي في وحدته وأن أجزاءه التي أوحي بها وفق مقتضيات الظروف قام بتدوينها ثقاة أمناء دائمون أو مكلفون. وإثر وفاة النبيﷺ الذي إنتهى بها الوحي بدأت نسخ عديدة من القرآن الكريم بالتداول مما أثار خشية من أن تنشأ مغايرات خطرة بينها.

ويعود الفضل في جمع أجزاء القرآن الكريم في كتاب واحد إلى

2 T. Andrae, *Mahomet, sa vie et sa doctrine*, p. 115.
3 E. Montet, *Le Coran*, «Introduction», p. 47.

الخليفة أبي بكر (٦٣٢ - ٦٣٤) وهو أول خليفة للنبيﷺ (أول الخلفاء الراشدين) الذي أناط هذه المهمة بزيد بن ثابت وهو عبد سابق محرر وكان كاتباً لدى النبيﷺ. فجمع زيد كل ما كتب على الأشياء الأكثر تنوعاً (عظام كتف الجمال والخراف أو على سجوف النخل أو الحجارة أو الآنية الفخارية أو قطع الخشب) وكل ما حفظه صحابة النبي في ذاكرتهم ووضع نصاً نهائياً للقرآن الكريم كتب على أوراق منفصلة (صحف) وسلمه إلى الخليفة. ولكن هذه النسخة الأولى المحررة لم تحظ بسلطة رسمية.

ثم ظهرت أربع كتابات خاصة للقرآن الكريم كتبها صحابة النبيﷺ بدت فيها تباينات في التفاصيل مما أثار خلافات بين المؤمنين. وإعتمد مسلمو كل من دمشق وحمص والكوفة والبصرة واحدة منها. لذا كان لا بد من جمعها في نص رسمي ونهائي، وهذا ما تم بأمر الخليفة عثمان بن عفان (٦٣٤ - ٦٤٤) الذي إستعان مرة جديدة بزيد بن ثابت (الأنصاري) كاتب أول نص للقرآن الكريم بأمر من الخليفة أبي بكر. فأرسلت نسخ من هذا القرآن الرسمي إلى مكة ودمشق والكوفة والبصرة والمدن العسكرية، في حين ظلت النسخة الأصلية في المدينة. «ولم يقبل مسلمو العراق وسورية التخلي عن نسختهم الخاصة من القرآن الكريم إلا بصعوبة. (هنا يتجلى بوضوح العداء السياسي بين المنطقتين»[4].

إن هذه النسخة النهائية الرسمية والأصلية من القرآن الكريم لاقت قبولاً إجماعياً من كل المسلمين. لكن بعض الفرق (الشيع) الإسلامية كالخوارج وغيرها إعترضت على بعض المقاطع التي إعتبرتها محرفة أو مدخلة. وفي ما خلا هذه الإعتراضات التفصيلية التي لم يكن لها من ذيول فإن صحة القرآن الكريم لا ينبغي الشك بها.

بيد أن الأخطاء التي إرتكبها نَقَلَةُ القرآن الكريم وعدم وضوح الخط العربي في ذلك العصر أدت جميعها إلى حصول بعض التعديلات في النص الرسمي الموافق عليه من قبل الخليفة عثمان وقد أصبحت هذه التعديلات أو التحريفات مصدر جدل ديني. وفي القرن العاشر تم نشر نص رسمي جديد للقرآن الكريم إعتمد من قبل سبعة علماء دين مسلمين مشهورين، وهذا النص الجديد كان مثار تفسيرات خاصة لإظهار معنى كلماته ومحلها في

4 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 105, 106.

الإعراب وكان هذا أساس التفسير الشرعي والعقائدي الإسلامي.

ج ـ محتوى القرآن الكريم وتسلسل نزول سوره الزمني

يحتوي القرآن الكريم على ماية وأربعة عشر سورة (أو فصلاً) مرتبة بحسب حجمها،وأقصرها، مع أنها الأقدم تاريخاً، تظهر في آخر القرآن الكريم في حين أن السور الأخيرة تقع في أوله لأنها الأطول. السورة الأولى (الفاتحة) هي صلاة قصيرة للغاية وكذلك عناوين سائر السور فليست جزءاً من النص المنزل. لكن هذا الترتيب المصطنع لم يكن ليرضي الأفكار الحكيمة لذا ظهرت محاولات عديدة تحاول ترتيب سور القرآن الكريم. ولعل الترتيب الذي لاقى قبولاً أكبر هو ذلك الذي يميز في القرآن الكريم بين نوعين من السور: سور مكة وهي السور المتوهجة بالوحي النبوي، وسور المدينة التي «تنظم الطائفة الإسلامية»[5].

٢ ـ السُنّة، أو أعمال الرسولﷺ وأقواله.

أ ـ السُنّة

إثر وفاة محمدﷺ جبهت تطور الطائفة الإسلامية وإنتشارها مشاكل جديدة لم يكن القرآن الكريم قد وضع نظاماً لها. ومن هنا جاء المصدر الثاني للشريعة الإسلامية وهو السُنّة المكونة من «مجمل أعمال النبيﷺ وأقواله» والتي رواها صحابته.

إن السُنّة (السلوك، وطريقة التصرف) والتي تختصر العادات والمفاهيم والتقاليد لدى الطائفة الإسلامية الأولى يمكن أن تعني «سلوك النبيﷺ أي «أعماله وأقواله» والتي يقتضي التمثل بها. «وهي شبيهة بما لدى اليهود من روايات أضيفت إلى الشريعة المكتوبة، وكل من حاد عن تلك السُنّة فقد وقع في البدعة. ومع الزمن إتخذت كلمة بدعة معنى الهرطقة بل صارت مرادفة لكلمة كفر»[6].

من كلمة سُنّة هذه التي إتخذت معنى إستقامة الرأي دعي المسلمون المخلصون لها بالسُنّة في مقابل الشيعة وسواها من البدع الإسلامية التي تعتبر منشقة أو غير مستقيمة الرأي.

5 Gaudefroy - Demombynes, *op. cit.*, P. 106,107.
6 Massé, *op. cit.*, p. 87.

إن أعمال الرسولﷺ وأقواله وقد نقلها صحابته أو خلفاؤهم قام بمناقشتها وتفسيرها جماعة من الفقهاء والعلماء الذين حرصوا على جمع كل الروايات حول دقائق حياة محمدﷺ. ومن تلك الدراسات ولد الحديث أو أقوال النبيﷺ والفقه أو علم الشريعة الإسلامية.

ب ـ الحديث أو أقوال النبيﷺ

إن كلمة حديث يقصد بها الأقوال المنسوبة إلى النبيﷺ. إن مجموع هذه الأقوال أو الأخبار يشكل أحد أهم مصادر الشريعة الإسلامية، فالقرآن الكريم لم يذكر إلا مبادىء عامة يواجه تطبيقها صعوبات كبيرة لولا الحديث.

تلك الأحاديث النبوية، وقد نقلها صحابة النبيﷺ أو خلفاؤهم تعد بالآلاف. وبعض تلك الأحاديث تم تحديثها لتستجيب مع الحاجات القانونية للمجتمع الإسلامي الذي تغير وتوسع بفعل الفتوحات. وفي هذا التطوير الذي طرأ على الحديث «وجد غولدزيهر أثراً خصوصاً من الأناجيل... وأفكاراً يهودية وهللينية جعلت على لسان النبيﷺ وتهدي إلى التقوى»[7]. وإن العديد من الأحاديث يعكس آراء مسلمي العصور الأولى من الإسلام في حين أن بعضها الآخر يظهر إهتمامات سياسية تنتمي الى تاريخ لاحق.

وهكذا فإن العلماء المسلمين عكفوا في وقت مبكر على إنتقاد نصوص الحديث ووضع تصنيف شديد التعقيد بني على أهمية من نقلوا تلك الأحاديث ودرجة الموثوقية التي يستحقونها. وهذا العمل الذي بوشر به في العصر الأموي لم ينته إلا في القرن التاسع. ففي هذا القرن تم إصدار ستة مصنفات كاملة من الأحاديث من قبل كتّاب مسلمين معظمهم من الفارسيين وقد إعتبرت صحيحة وإرتدت طابعاً رسمياً. كما تم إلغاء كل الأحاديث الزائفة والتي، بإعتراف المسلمين أنفسهم أصبحت عديدة جداً في القرن التاسع (نحو ٦٠٠,٠٠٠ حديث). وتم دراسة مقاطع وتعليقات من تلك الأحاديث في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده.

٣ ـ الفقه الإسلامي أو علم الشريعة

إن الأحاديث، برغم غزارتها، لم تتمكن وأسوة بالقرآن الكريم، من تزويد الطائفة الإسلامية بنص تشريعي كامل. «فالعلاقات المعقودة مع أناس

7 Massé, *op. cit.*, p.·89.

أكثر حذاقة من العرب (من مثل السوريين والإيرانيين) وإنتشار الترف الذي تسارع بفعل الفتوحات أظهرا أكثر فأكثر عدم كفاية القواعد التشريعية التي تنظم على أساسها المجتمع الإسلامي»[8]. ومن هنا ولد علم الفقه القائم على أساس الإجتهاد التشريعي أو التفسير النظري للشريعة الإسلامية. وهكذا أضيف إلى التقليديين المتمسكين بحرفية النصوص مجموعة من العلماء الذين كانوا يناقشون روحية الشريعة الإسلامية ويفسرونها لإعطائها تطبيقاً عملياً.

«إن الفتوحات نفسها شجعت هذا التطور الحاصل في مجال الفقه كونها وضعت العرب وجهاً إلى وجه مع شعوب تحكمها قوانين قديمة (يهودية، رومانية، وفارسية) كان لها تأثيرها على الإعداد الأولي للشريعة الإسلامية»[9].

أ ـ المذاهب الفقهية والمجتهدون

إن دراسة معمقة لعلم الحديث ستؤدي إلى نشوء تباينات في الرأي بين المجتهدين، أو بالأصح تباينات في النهج القانوني مما أدى في أيام العباسيين إلى ولادة أربعة مذاهب فقهية ترجمت خلافاً للأصول بكلمة بدعة أو شيعة تقاسمت المناطق الإسلامية المختلفة.

إن هذه المذاهب الأربعة أو النهج والتي كلها مستقيمة الرأي هي التالية: مذهب أبي حنيفة وهو فارسي الأصل توفي العام ٧٦٣ (أخذ به في تركيا، الهند القارية، الصين)، مذهب الشافعي الذي توفي العام ٨٢٠، وقد أخذت به (مصر السفلى والحجاز وجنوب الجزيرة وأفريقيا الشرقية والجنوبية)، مذهب مالك المتوفى العام ٧٩٥ (أفريقيا الشمالية، مصر العليا، أفريقيا الغربية والسودان)، ومذهب إبن حنبل المتوفى العام ٨٥٥ (سورية وبلاد ما بين النهرين منذ القرن الثاني عشر). إن هذه المذاهب السنية الأربعة لا تفرق بينها سوى تباينات ثانوية تتعلق بتطبيق الشريعة وبمصادرها وليس بمبادئها. وكل مسلم سني يمكنه إذن إعتماد أي من هذه المذاهب الأربعة على السواء.

إن واضعي هذه المذاهب الأربعة، الذين يعرفون بالمجتهدين والذين كان بوسعهم تكوين رأي شخصي، أقاموا المبادىء الأساسية لعلم الفقه أو الشريعة الإسلامية بتطبيقهم مبدأ القياس والرأي الشخصي المبني على حسن الادراك، وإجماع العلماء، إلخ...

8 Massé, *op. cit.*, p. 91.
9 Massé, *op. cit.*, p. 91-92.

ب ـ المفتي المشترع والقاضي

وعندما إنتهى في زمن لاحق عهد التفسير بعد وفاة المجتهدين الأربعة إستمرت الإستشارات القضائية (الفتاوى) وكانت تستند على السوابق ويقوم بإعطائها مشترعون يطلق عليهم إسم المفتي. وهؤلاء، خلافاً لمؤسسي المذاهب الأربعة، لا يصدرون آراء شخصية وإن إستشاراتهم يستعين بها القاضي.

إن القانون الإسلامي ذا الطابع الإلهي وقد أعد من أجل عصر معين ثم صار لا يمكن مسه «وكون المسائل الشعائرية فيه تختلط بمسائل القانون المدني والجنائي والدستوري» (ماسيه)، فإنه لم يعد يعبر مستقبلاً عن الحاجات الاجتماعية ذات التطور المستمر. وإن تعقيدات الحياة الفعلية ستتناقض بمرور الزمن بأنظمة سُنت لأزمنة غابرة. وهذا ما حدا بالمسلمين إلى أن يتخلوا عن العديد من النصوص التي أصبحت باطلة.

إن هذا التطور سيدعو إلى إنشاء قضاء مدني متميز عن القضاء الديني الذي يطبقه القاضي ويأخذ بعين الإعتبار متطلبات الحياة الدنيوية ويعالج القضايا التجارية وقضايا الأملاك ومسائل القانون الجزائي. ويبقى القضاء الديني صالحاً للمسائل الشعائرية والأحوال الشخصية.

ولاحقاً، وفي زمن الأمبراطورية العثمانية، فإن التغييرات الإجتماعية ستحدو بالسلاطين ـ الخلفاء إلى التجديد في هذا الميدان بإصدار تنظيمات عديدة للقانون المدني. لكن حياة المسلمين الدينية والإجتماعية ستبقى مطبوعة بعمق بتأثير المفتيين الدينيين وسوف تسيطر ولفترة طويلة على نشاط الطائفة الإسلامية.

٤ ـ الخلاصة

أ ـ الإسلام الأولي، مجتمع تيوقراطي (حكم إلهي)

إن الإسلام الأولي، كما قلنا، هو طائفة يختلط فيها الروحي والزمني بشدة. فهو كاليهودية، والتي نشأ منها جزء لا بأس به من الإسلام، دين وأمة ودولة معاً. وإن القرآن الكريم، أساس الإسلام، هو كالتوراة، مجموعة قوانين دينية ومدنية وإجتماعية ولكن خلافاً لليهودية التي هي دين حصري لشعب، فإن الإسلام يشبه من هذا القبيل المسيحية لأنه دين عالمي ومفتوح لجميع الناس من غير تمييز في الأعراق.

وقد رأينا أن الدين يحتل مركزاً متفوقاً في تكوين الشعوب والدول القديمة. لا بل إنه عنصر أساسي لا يمكن من دونه لأي مؤسسة جماعية أن تتمتع بحياة نظامية. وهذه الميزة تتجلى أكثر في المجتمعات السامية البدوية أو المتحولة حديثاً إلى حياة الحضر والتي يكون فيها الشعور بالوطن ـ الأرض والحس المدني هما بطبيعة الحال في طور التكوين. فلدى تلك المجموعات البدوية أو المتحدرة من بدو فإن الرابطة التي تجمع بين أفرادها هي عادة رابطة قرابة الدم وهي رابطة واهية أصلاً ومحدودة طبعاً بالمدى المحدود. وفي مثل هذه الأوضاع فإن ديناً مشتركاً يمكنه فقط أن يقيم وحدة بين الناس على مستوى أوسع. إن الدين الذي جاء به محمدﷺ يقدم لنا من هذا القبيل تنظيماً شبه تام وبأكثر من النظم الدينية التي جاء بها حمورابي أو موسى: فقانون ملك بابل العظيم ولوحات وصايا موسى ليسا أبداً بمثل كمالية القرآن الكريم.

ب ـ الطابع القانوني للإسلام

إن الإسلام، وقد حددته ونظمته شريعة موحى بها، هو شرعوي من العهد القديم ويتمتع بطابع قانوني للغاية تسود فيه روح العدالة. فالله قبل كل شيء هو إله ـ قاضٍ والإيمان بيوم الحساب الأخير يشكل إحدى العقائد الأساسية في الإسلام.

إن القرآن الكريم بتنظيمه فروض الإنسان نحو الله، فقد حدد أيضاً العلاقات التي يجب أن تسود بين أعضاء المجتمع الواحد. وإن كل الحياة الإسلامية الدينية والمدنية هي منظمة بقوانين وأنظمة مسنونة بدقة. فالتشريع المدني، وحتى جزء من التقاليد والعادات فضلاً عن العديد من تفاصيل الحياة اليومية، نراها ممزوجة بالقانون الديني. وقد نتج عن كل ما تقدم نزعة تلح على أهمية الطقوس الدينية أكثر تطوراً من الطقوسية اليهودية.

III. المبادىء والشريعة الاسلامية

تكلمنا عن القرآن وحديث النبيﷺ والفقه الإسلامي والتي تشكل بالنسبة إلى المسلمين مصادر المبادىء والشريعة الإسلامية وأسسها. وسنرى الآن ما هي تلك المبادىء وما هي هذه الشريعة.

١ ـ المبادىء الإسلامية

إن الإيمان الإسلامي يجد في القرآن الكريم مرتكزاته الأساسية: الإيمان بإله واحد هو الله وبرسوله محمدﷺ وبالقرآن الكريم الذي تسلمه محمدﷺ من الله وبالكتب المنزلة والأنبياء المرسلين من الله قبل محمدﷺ وبالملائكة والشياطين وبحساب اليوم الأخير (قرآن كريم ـ ٤ ، ١٣٥) فالأمر لا يتعلق، كما نرى، بإيمان جديد: فالقرآن يعيد إلى صفائه الأصلي، الدين الذي أوحي لإبراهيم والذي حرّف اليهود ومن ثم المسيحيون نصه والذي يريد محمدﷺ نشره بين العرب.

وينبغي أن نضيف إلى هذه المبادىء الأساسية التي تكوّن الإيمان الإسلامي فضيلة الإحسان والخضوع التام لله (الإسلام). فهذا المجموع المؤلف من الإيمان والإحسان والخضوع هو الذي يشكل بالمعنى الأرحب دين الإسلام.

أ ـ وحدة الله

إن هذا الإيمان الذي يجري تأكيده في مجمل القرآن الكريم والذي يختصر بعبارة: «لا إله إلا الله»، هو المادة الأولى من الإيمان وفي الوقت نفسه المبدأ الأساسي في الإسلام. وهو يناقض مبدأ تعدد الآلهة الوثني ومفهوم الثالوث المسيحي. «هو الله الأحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له

كفؤ أحد». إن المشركين (الذين يجعلون لله شركاء) يرد ذكرهم في القرآن الكريم تقريباً في مستوى الكفار نفسه. فهذا التوحيد الإلهي العنيف يذكرنا بالتوحيد الإلهي الوارد في التوراة. فالله، أسوة بيهوه، يتميز بطابع حصري.

إن الله وقد أخرج العالم في ستة أيام من العدم خلق الأرض للإنسان وخلق هذا الإنسان على صورته ومثاله ونفخ فيه روحه. وإن الناس، وقد خلقهم الله بفعل قوته ورحمته كي يطيعوه، فهم متقلبون وطمّاعون وضعفاء وغير مدركين وبخاصة عقوقون. وبرغم أن القرآن الكريم يقارن بإستمرار بين الفانية (الدنيا) والآخرة (الحياة الأبدية) التي هي أبهى بشكل لا يضاهى من حياتنا الحاضرة إلا أن آيات قرآنية عديدة تشجع الإنسان على التمتع بالخيرات الأرضية التي وهبنا إياها الله شرط أن نكون له شاكرين وحسب.

ب ـ الملائكة والشياطين

إن الله خلق الملائكة ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس. وقد خلقهم من نور، ولا جنس لهم. وعلى رأسهم رؤساء الملائكة الأربعة العبرانيون الذين أصبحوا في الإسلام يدعون بالمقربين من الله، وهم جبريل رسول الله وميخائيل الذي يراقب العالم وأسرافيل الذي ينفخ بالبوق مؤذناً بيوم الحساب الأخير وعزرائيل وهو رئيس ملائكة الموت. وكل إنسان له ملاكان حارسان يتناوبان السهر مرتين في اليوم ويسجلان أعماله الصالحة والطالحة. وأمامنكر ونكير فهما ملاكا القبر. ورضوان هو ملاك الجنة ومالك يحرس الجحيم.

رئيس الشياطين هو الشيطان الذي تأتي على ذكره التوراة ويدعى أيضاً بإبليس (تحريف كلمة ديابولوس اليونانية). كان إبليس في الماضي ملاكاً مخلوقاً من نار وقد رفض السجود أمام آدم الإنسان الأول المخلوق من تراب ولذا أنزل الله عليه اللعنة. وهو في سبيل الإنتقام قرر تضليل البشر وإزاغتهم عن الله. وقد بدأ بآدم وحواء اللذين إستمعا إليه فطردا من الفردوس. لكن هذه الخطيئة التي إرتكبها الإنسانان الأولان هي خطيئة شخصية فردية ولا تطال نتائجها ذريتهما من الناس كما هي الحال في الدين المسيحي. لذا فإن الإسلام لا يعترف بسر الفداء.

إن إبليس يأمر جيشاً كبيراً من الشياطين هم الجنّ وقد خلقوا من نار ويمكنهم أن يظهروا بمظاهر متعددة. وإن الجنّ الذين تبناهم الإسلام هم آلهة عربية سابقة للإسلام كانوا يؤدون في الصحراء دوراً مشابهاً لدور الحوريات أو

ساطير (شخص خرافي نصفه الأعلى بشري والأسفل ماعز) والذين كانت تقدم إليهم القرابين لإبعاد ضررهم عن الناس. والشياطين الذين يتجرأون أحياناً للصعود حتى أطراف السماء السابعة يتولى الملائكة إبعادهم عنها.

ج ـ الأنبياء الموحى إليهم والكتب السماوية المنزلة

إن الأنبياء وهم أعلى من الملائكة الذين لم يضطروا الى مقاومة طبيعتهم، هم رسل الله الذين كلفوا تعريف الناس بالدين أو تذكيرهم به. وعددهم يتعدى الآلاف لأن لكل شعب رسله. إلا أن بعض هؤلاء الأنبياء فقط جاء إلى الناس بكتب منزلة. وأهمهم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويسوع المسيح (عيسى ابن مريم) وأما آخرهم وأهمهم فهو محمدﷺ «خاتم النبيِّين». ولا بد لنا أيضاً من ذكر داود ويعقوب ويوسف وأيوب وهم أنبياء ثانويون.

الكتب المنزلة هي التوراة التي جاء بها موسى والإنجيل الذي جاء به عيسى والقرآن الكريم الذي يكملهما وقد نزل على محمدﷺ.

إن الأنبياء، ورتبتهم فوق رتبة الملائكة ويعتبرون أشخاصاً قديسين، يمتلكون نعمة صنع المعجزات. إن نزول القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة التي يعتز بها محمدﷺ.

د ـ قيامة الموتى ويوم الحساب الأخير

بعد مبدأ وحدة الله هناك مبدأ قيامة الموتى وحساب يوم الدين (الدينونة) ويعتبران النقطة الرئيسية في بشارة محمدﷺ. وهذا المعتقد الذي رفض مواطنوه القبول به لأنه محال كان نتيجة شعور ديني شخصي عميق في قرارة محمدﷺ ونتيجة «حرارة إيمانه بإله ـ ديّان» يجازي الذين يتحدون إرادته الفائقة القدرة.

«وعندما يريد محمدﷺ إختصار الإيمان بالطريقة الأكثر إقتضاباً كان يعطي تحديداً له: الإيمان بالله وبيوم الدين (يوم الحساب الأخير). فالحياة الآخرة والحساب الأخير يشكلان الأساس الجوهري للإيمان... وإن الرجل التقي لا يجب أن يؤمن بحساب اليوم الأخير وحسب بل أن يخشاه أيضاً. أن يخشى الدينونة والديّان... وان الخوف هو الحالة النفسية الأساسية للتقوى. لذا فعلى التقي أن يخاف»[10].

10 T. Andrae, *op. cit.*, p. 59, 60.

إن هـذا التهديـد من الغضب الإلهي مرده إلى واقـع أن الإنسـان في نـظر محمـدﷺ خلق لإطاعـة الله وإتباع وصـايـا الشـريعـة الإلهيـة تحت طـائلة أقسى العقوبات. بيد أن الإسلام يقبل بالشفـاعة أو تـدخل الـرسولﷺ طـالباً الـرأفة بالخطأة.

هـ ـ الجحيم والفردوس أو الحياة الآخرة

إن الجحيم، ويـرد ذكـره في القــرآن الكـريم تــارة النـار وطــوراً جهنم يتضمن سبعة أجزاء، آخر جزء منها هو خلقين كبير من قار يغلي وبئر لا قرار لها. وبين الجحيم والفردوس يوجد نوع من المطهر أو اليمبوس.

الجنـة أو الفـردوس.ـ ويقسمهـا الحـديث إلى ثمـانيـة أجـزاء وهي المكـان الذي يحلم ببلوغه أشخاص مثل عرب الجزيرة العربية تفتقر بلادهم إلى المياه والظلال والراحة. فالجنة ليس فيها سوى حدائق تجري فيها من كل جانب أو تحتهـا أنهار من المـاء العــذب واللبن والخمـر والعســل،حيث ينعم الأخيـار فيأكلون ويشربون ما طـاب لهم بصحبة نسـاء جميلات هن الحـواري. وفي أعلى الفردوس ينتصب عرش الله.

أما «وصف الأفراح الروحية في الفردوس فهي أكثر إيجازاً بكثير، بيد أننا نعلم أن الصالحين يفرحون لعدم سماعهم بعدها هـزراً ولا يسمعون إلا تحيـات السلام السماوية (قرآن كريم، ١٠، ١٠) شاكـرين الله لأنه نـزع عنهم همومهم (قرآن كريم، ٣٥، ٣١ ـ ٣٢) والأهم من كل ذلك فهو تمتعهم بنعمة الله ورضاه (٩، ٧٣)»[11].

و ـ القضاء والقدر

إن العقيدة الإسلامية القائلة بالإيمان بالقضاء والقدر، وهي الفكرة التي شغلت لاحقاً كثيراً مفكري الإسلام،«هي نتيجـة لمفهوم الله كـإرادة مطلقـة حرة لا يمكن سبـر غورهـا». «لأنه وفي النهـاية فـإن الإيمان أو الكفـر ليسـا من خيـار الإنسـان نفسه بـل إن الله هو الـذي يعطي بعض النـاس نعمة الإيمـان ويحجبها عن الآخرين»[12].

إن إرادة الله وقوته ورحمته وعدله لا حدود لهـا أو ضوابط. فهـو يجازي أو

11 T. Andrae, *op. cit.*, p. 57.

12 Andrae, *op. cit.*, p. 62.

يعفو متى أراد وحسبما يشاء. «فلا النبي ولا أي شخص آخر يمكنه أن يعرف ما سيتخذه الله من قرار. لذا ففي القرآن الكريم لا ترد الوعود أو الأحكام إلا مقرونة بالعبارة الجوهرية: إن شاء الله»[13].

والقدر ينجم أيضاً من تحديد كلمة الإسلام نفسها (أن يسلم المرء نفسه) وهو التعبير الذي أطلقه محمدﷺ على الدين الذي أسسه. وهذه الكلمة من فعل أسلم (تعني أن يعطي المرء نفسه ويسلم ذاته ويتخلى عن كل مقاومة) تعبّر عن فكرة «التخلي طوعاً عن الذات أمام الإرادة الإلهية أو الإستسلام إليها وأيضاً «خضوع العقل التام أمام الوحي»[14].

إن فكرة أن الله قد حكم على الإنسان إما بالسعادة أو اللعنة تظهر لنا منافية للعقل وفي الوقت نفسه متناقضة مع الإيمان الإسلامي بإله ـ قاضٍ عادل في جوهره ومع مبدأ حساب اليوم الأخير.

وفي الواقع فإن القرآن الكريم ليس أكثر قدرية من الإنجيل أو التوراة. «فمحمدﷺ، كغيره من الملهمين الدينيين، لم يكن يشعر بأن مبدأ القدر سيحطم إرادة الإنسان الحرة ويلغي مسؤوليته»[15]. «وإذا كان بوسعنا ذكر عدد كبير من السور القرآنية التي تقر بمبدأ القدر، ففي الحقيقة، إن القرآن الكريم لا يقطع من حيث عقيدة القدر بمبدأ جازم. فهناك العديد من السور القرآنية التي تنطوي على الإعتقاد بالحرية المعنوية»[16]. إن حرية الخيار كان لها العديد من المدافعين عنها في الإسلام. وإن مسألة القدر ستقسم المفكرين المسلمين إلى فئتين متعارضتين: فئة القدريين الذين يقللون من دور القدر وفئة الجبريين، أنصار عقيدة مبدأ الجبر الإلهي.

إن الإيمان بالقدر الذي من شأنه منطقياً «أن يشل فينا كل إرادة وكل مبادرة... له بالأحرى فعل معاكس... فهو يظهر مصاعب هذا العالم للإنسان على أنها ضئيلة... إن تفسير هذا التناقض الظاهري هو أن الإيمان بالقدر هو في الواقع التعبير الأعمق والأكثر منطقية عن مفهوم حقاً ديني، للعالم والوجود البشري... فليس في مقدور الإنسان أن يقف بزهو ضد إرادة الله... وفي الوقت نفسه فإن الإنسان التقي متأكد من أن هذه الإرادة الإلهية التي لا يمكن

13 Andrae, *op. cit.*, p. 62.
14 Andrae, *op. cit.*, p. 68.
15 Andrae, *op. cit.*, p. 64.
16 L. Montet, *Le Coran*, p. 34.

إدراكها هي طيبة ورحيمة للغاية. وإن العديد من كبار الأنفس العباقرة التي حركها الإيمان كالقديس بولس ولوثر وكالفان كانت لهم أفكار مشابهة»[17].

إن إيمان محمدﷺ بالقدر يبدو أنه تعزز وتقوى بفعل كفر مواطنيه برسالته وعدم تقبلهم لتعاليمها. فإيمانه الحار برسالته النبوية دفعه إلى عزو مقاومتهم إلى فعل الإرادة الإلهية التي يتعذر سبرها.

ومن جهة أخرى وإلى جانب فكرة إرادة الله غير المحدودة واللامتناهية هذه، فالله بالنسبة إلى محمدﷺ «لا يلزم نفسه بقراراته. إن أحد أسرار تلك الإرادة التي لا حدود لها هو أنها لا تحاول أن تكون،لا منطقية ولا متطابقة... وإن هذه الميزة التي يتميز بها وحي محمدﷺ مطابقة لطبع النبيﷺ وميوله الشخصية... فمن بين الذين نزل عليهم الوحي الديني هناك متعصبون قصيرو النظر يحتفظون بعناد بالأفكار الأقل نضوجاً والأكثر إغضاباً. لكن محمداًﷺ لم يكن متعصباً... وهو عندما تدعو الظروف إلى ذلك لا يتردد عن الاعلان بأن الله قد عاد عن وحي سابق نزل عليه وإستبدله بوحي آخر»[18] (قرآن كريم، ٢، ١٠٠).

٢ ـ الشريعة الإسلامية

إن الأوامر والنواهي المعلن عنها في الدين الإسلامي مصدرها هو الشريعة الإسلامية التي تنظم مظاهر النشاط البشري الخارجية. وهذه الشريعة الدينية المكونة أساساً من القرآن والحديث سوف تكملها إجتهادات الفقهاء أي الفقه الذي أصبح له وحده في النهاية الصفة القانونية.

لقد رأينا كيف أن الإسلام هو في الوقت نفسه دين ومجتمع مدني وسياسي ونوع من «التيوقراطية العلمانية الداعية الى المساواة»، وذات الطابع القانوني أساساً. إن الشريعة الإسلامية، وهي تعبير عن الإرادة الإلهية التي تمنح المؤمن «حالة قانونية» مميزة، تهدف إلى تنظيم فروض الحياة الدينية أي العبادة، والأوضاع الحياتية أو الحالات القانونية أي المعاملات، وأخيراً العقوبات التي تضمن تنفيذ هذه الأوامر الشرعية.

17 Andrae, *op. cit.*, p. 62, 63.
18 Andrae, *op. cit.*, p. 65, 66.

ومن هنا جاءت التقسيمات الثلاثة الكبرى للشريعة الإسلامية وهي: الأوامر الدينية والأوامر القانونية أو المدنية والأوامر الجزائية أو القانون الجزائي وهذه الأوامر القانونية الدينية والتي يجب من حيث المبدأ تطبيقها بصرامة إلا أنها خضعت في الواقع لتخفيفات ملموسة أملتها الظروف.

أ ـ الأوامر الدينية أو فروض العبادة.

إن الحياة الدينية المبنية أصلاً على فروض دينية تقوم على خمسة فروض شعائرية يحددها الشرع وتسمى بأركان الدين، وهي: ١ ـ الشهادة. ٢ ـ الصلاة. ٣ ـ الصوم. ٤ ـ الزكاة. ٥ ـ الحج. وقد أضاف بعض الكتّاب إلى هذه الفروض الأساسية ركناً سادساً وهو الجهاد أي الحرب المقدسة،وهو واجب جماعي لم يتحدد مفهومه إلا بعد وفاة الرسولﷺ.

إن فكرة الله في الحياة الدينية الإسلامية هي تصوره كسيد مرهوب وفي الوقت نفسه «أب» إلهي رؤوف. وبرغم أن الدين الإسلامي هو دين يقوم على الشعائر الدينية والشكليات أصلاً بيد أن مظاهر العبادة والأعمال البشرية لا قيمة لها بحسب الحديث الشريف إلا إذا كانت تعبر عن نية صادقة لدى المتعبد. ومن جهة أخرى فإن مسألة التقوى الشخصية والحياة الإيمانية الداخلية طرحت في الإسلام. لذا فالمأخذ القائل بأن الإسلام دين شعائر آلية لا أساس له من الصحة.

الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله ومحمداً رسول اللهﷺ).ـ كان يكفي المهتدي، كي يدخل الطائفة الإسلامية الأولى الجهر الصريح بإيمانه المعلن بشكل شهادة يؤكد فيها إيمانه بوحدانية الله ورسالة نبيه محمدﷺ. «أشهد أن لا إله إلا الله ومحمداً رسول اللهﷺ». وشهادة الانتساب الرسمي هذه هي بمثابة قسم مقدس يعادل المعمودية لدى المسيحيين فهي تدمج معتنق الإسلام بالطائفة الإسلامية وسوف تحل بعد ذلك محل الروابط القائمة على قرابة الدم ومحل إحتفالات التآخي والتبني القديمة التي كان يقوم بها عرب الجاهلية في الصحراء. ويجب الشُهر نطقاً بهذه الشهادة في جميع الظروف الإحتفالية وبخاصة لدى إقتراب ساعة الموت.

الصلاة.ـ وهي العامل الأساسي في العبادة والواجب الأهم في نظر النبيﷺ. ففي مكة كان محمدﷺ وأتباعه لا يعرفون سوى الصلاة أو التأمل

الليلية وصلاتي الصباح والمساء. وفي المدينة وبعد الهجرة أضيفت صلاة العصر ولم يرفع عدد الصلوات اليومية إلى خمس، كما هي الحال اليوم، إلا لاحقاً وهي موزعة من الفجر حتى صلاة العشاء.

إن الصلاة الإسلامية هي «واجب ودَيْن نحو الله» وهي شعائرية أصلاً وتتضمن ممارسات دينية هي مجموعة وقفات وحركات من قيام وركوع وسجود وهي الأوضاع الرئيسية الثلاثة للصلاة الإسلامية. وإن النية التقية تعطي القيام بهذه الشعائر قيمتها الدينية.

إن جميع المؤمنين الراشدين والعاقلين مجبرون على أداء الصلاة بعد القيام بالتطهير الشرعي وهو الوضوء أي غسل الوجه والأطراف بالماء أو الرمل. وإن إستخدام اللغة العربية في الصلاة إلزامي أياً كانت لغة المسلم الخاصة وعليه الإتجاه نحو مكة المكرمة. ويمكن أداء الصلاة في جميع الأماكن وحتى في الهواء الطلق ما عدا صلاة ظهر يوم الجمعة التي هي صلاة جماعية تؤدى في مسجد وتشبه القداس عند المسيحيين. ويوم الجمعة ليس يوم راحة فلا يتوقف المسلم عن العمل إلا وقت صلاة الظهر ليتمكن من أداء الصلاة الجماعية وحيث يلقي الإمام خطبة.

إن المسلم، سواء أصلى بمفرده أم في جماعة، «يبدأ بتنغيم السورة الأولى في القرآن وهي الفاتحة أو يتلوها غيباً، فضلاً عن سُوَر قصيرة أخرى تعبر عن إيمانه والتي يطلب فيها البركة أو شفاعة النبيﷺ،وصلوات شكر قصيرة؛ ترافق هذه الصلاة إنحناءات وركعات وسجود وكلها حركات منظمة بدقة»[19].

الصلاة لراحة أنفس الموتى هي واجب على كل مسلم، وهي تؤدى في بيت الميت أو في المسجد أو في المدفن.

وهناك أيضاً صلوات طوعية أشهرها صلاة الليل وهي غير صلاة العشاء.

صوم رمضان المبارك.- وفي العام الثاني للهجرة وفي المدينة المنورة عيّن الرسولﷺ شهر رمضان المبارك ليكون شهر صوم. ويقول ونسنك ان شهر رمضان المبارك كان مكرساً قبل الإسلام كشهر مقدس من قبل الوثنية العربية.

إن صوم رمضان المبارك هو إلزامي على كل مسلم ولا يعفى منه سوى

19 Andrae, *op. cit.*, p. 80.

المرضى والمسافرين. ويبدأ منذ ظهور هلال رمضان المبارك ويثابر عليه بدقة طوال ذلك الشهر من الفجر وحتى المغيب. ويحرم على المسلم طوال النهار أن يأكل أو يشرب أي شيء كما يحرم عليه التدخين أو ممارسة العلاقة الجنسية. وقبل الفجر يعلن المسلم نيته على الصوم. ومن غير إعلان هذه النية يكون الصوم غير مقبول. وبعد مغيب الشمس يتناول الصائم وجبة العشاء تليها وجبة ثانية عند الفجر. كما يتوجب الصوم أيضاً للتعويض عندما لا يصوم المسلم طوال الشهر. ويُعفى من الصوم الطاعنون في السن والمرضى والنساء الحوامل على أن يدفعوا صدقة أو تكفيراً.

الزكاة.ـ وهي ضريبة حقيقية قائمة على مفهوم هو أن أموال هذا العالم نجسة وأنه ينبغي تطهيرها بتقديم جزء منها إلى الله. ومن هنا جاء إسم زكاة ومعناها أساساً التطهير. وهناك إسهام مالي آخر يعرف بالصدقة وهو إختياري. وهذان النوعان من الضرائب الملزم بهما كل مسلم ذي دخل يعادل الحد الأدنى وصحيح الجسم والعقل يستفيد منها الفقراء والمتطوعون في الجهاد المقدس والمديونون لسبب ديني. ويتم دفعها عيناً، وقيمتها عامة ٢,٥ بالماية من الرأسمال مع إمكانية خفضها.

وصارت الزكاة بعدها تدفع مالاً نقدياً وفقدت طابعها الإحساني. وأما الصدقة (الزكاة الطوعية) فأحد الأشكال التي إتخذتها هي الأوقاف وهي مؤسسات أو مبان أو أراض يوقف ريعها بشكل نهائي للإنفاق على المؤسسات الخيرية أو إنشاء المباني العامة كالجامعات والمستشفيات إلخ... وفي حال وفاة المنتفعين من تلك الأوقاف فإن ريعها المخصص للوقف يخصص إنفاقه على الفقراء.

الحج إلى مكة.ـ على كل مسلم راشد، رجلاً كان أو إمرأة، إذا كان قادراً على ذلك،أن يحج إلى مكة على الأقل مرة واحدة في حياته. وهناك سبب آخر للإعفاء من هذا الركن هو إذا كانت الطرق غير آمنة.

وفي المدينة، وبعد مرور سنة ونصف على الهجرة، تخلى الرسولﷺ عن التوجه بالصلاة نحو القدس ، مدينة اليهود المقدسة، لصالح مكة التي صارت مدينة الإسلام المقدسة ومركز حج كل المسلمين كما كانت أيام عرب ما قبل الإسلام.

وصارت أراضي مكة أراضي حرم كما كانت قبل الإسلام. ولا يمكن

الحاج الدخول إليها إلا بعد أن يكون في حالة إحرام إذ عليه أن يرتدي ثوباً خاصاً، ويقوم بالوضوء وقص أظافره ودهن جسمه بالعطر وأحياناً قص شعر رأسه وأن يكشف رأسه وينتعل خفاً. وممنوع في حالة الإحرام هذه تعاطي أية علاقة جنسية أو أعمال التبرج والزينة أو القتل. ثم يعلن المسلم نيته بأداء فريضة الحج بصوت مرتفع بقوله: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك.

وعندما يصل إلى مكة المكرمة فإنه يطوف سبع مرات حول الكعبة ويسمى هذا العمل بالطواف،ثم يدخل إلى ساحة الكعبة ويُقبّل الحجر الأسود. ثم يقوم بعد ذلك بطوافات جديدة حول الكعبة ويزور بعدها أكمتي الصفا والمروة. وحتى هنا فإن هذه الإحتفالات المسماة بالعمرة تماثل ما كان متعارفاً عليه من شعائر قبل الإسلام مما كان يجري في مكة المكرمة وتحت الإسم نفسه بمناسبة الحج الوثني. وبعد العمرة تبدأ سلسلة إحتفالات الحج أو الحج بحد ذاته وهو إحتفال جماعي يحصل مرة واحدة في السنة في تاريخ ثابت في شهر ذي الحجة. ففي السابع من هذا الشهر تجري الخطبة في مسجد الكعبة وفي الثامن منه يتم الصعود إلى مِنى والوقوف على أكمة عرفة. وفي التاسع منه يتوقف الحجاج طيلة اليوم في عرفة وهم يؤدون الصلاة وفي العاشر منه تكون العودة إلى منى حيث، وبعد القيام ببعض الشعائر المقدسة، يقوم الحاج بنحر خروف أو ماعز أو جمل، وهي أضحية تمثل العيد الكبير. وأخيراً في الحادي عشر من الشهر تتم آخر الزيارات للأماكن المقدسة وللكعبة. وعند العودة يتوقف العديد من الحجاج في المدينة المنورة لزيارة ضريح النبي محمدﷺ.

الجهاد.- إن الهدف من الجهاد أو الحرب المقدسة هو نشر الإسلام وبسط حدوده الأرضية وهو واجب ديني وليس فرضاً أساسياً. ويحث عليه القرآن الكريم بشكل غير مباشر لكنه فرض بخاصة بعد موت النبيﷺ. ومن حيث المبدأ فإن على كل مسلم ذكر، حر وسالم الجسم والعقل أن يفي بهذا الواجب.

وبصورة عامة فإن مجمل البلاد الخاضعة لسلطة الخليفة تكون دار الإسلام وأما ما يقع خارجها من بلاد فتكون دار الحرب أو بلد الكفار. وهؤلاء تتم دعوتهم أولاً إلى إعتناق الإسلام فإذا فعلوا فإنهم يدخلون في الطائفة الإسلامية أو الأمة وإذا رفضوا وجب تسوية وضعهم بقوة السلاح.

والحرب إذا كانت ظافرة فإنها تنتهي بفتح بلد الكفار واحتلاله بالقوة أي عنوة أو بإستسلام العدو وإبرام الصلح معه. ففي الحالة الأولى تشكل الأموال والمقتنيات المنتزعة من العدو غنيمة يجري توزيعها على المجاهدين ما عدا خمسها وهو «جزء الله» ويوزع على المحتاجين. وأما في حالة الإستسلام أو الفتح بواسطة الصلح فإن أهل الكتاب أي اليهود والمسيحيين ممن لهم كتاب مقدس فيحق لهم ممارسة عبادتهم الدينية. ومنذ فجر الإسلام فإن فرقاً أو شيعاً دينية مختلفة، وحتى مجموعات وثنية، إعتبرت من أهل الكتاب: كالزرادشتيين والسامريين والصائبة والهندوس وحتى الصينيين لاحقاً، وكل هؤلاء الكفرة ظلوا يعيشون وسط الطائفة الإسلامية كذميين ويمارسون عباداتهم بحرية لقاء دفع ضريبة عن الأشخاص أو الرؤوس أو الجزية،ويُعفى منها النساء والأولاد والعَجَزة فضلاً عن الأرقاء والرهبان الفقراء. وكانوا يتمتعون في المقابل بحماية قانونية على أشخاصهم وأملاكهم كالمسلمين تماماً.

ب ـ الأوامر المدنية

وبالإضافة إلى مبادىء الدين الإسلامي وفروض العبادة فإن القرآن الكريم يتضمن أيضاً القواعد الرئيسية للتشريع المدني والجنائي الخاص بالمسلمين وينظم بعض الأمور المتصلة بتنظيمهم الإجتماعي.

الحياة العائلية. ـ إن الاسلام على الصعيد العائلي يهتم خصوصاً بتنظيم العلاقات الزوجية. وإن القواعد التي أرساها جاءت تضاف فوق العادات القديمة.

الزواج. ـ إن الإسلام نظم تعدد الزوجات الضروري لزيادة الذرية من الذكور، فخفض عدد الزوجات الشرعيات المسموح الزواج بهن إلى ٤ فقط، مشترطاً على الزوج أن يعدل تماماً بين زوجاته الأربع. على أن الرجل بوسعه أن يتخذ له ما شاء من ضرات. والزوجة لا تأتي بأي بائنة بل بالعكس فإن الخطيبة هي التي تحصل على نوع من هدية هي المهر والذي لم تعد له ميزته القديمة كثمن شراء وصار يمنح للزوجة حتى في حال الطلاق كتعويض لها.

ويتم الزواج بعقد تليه إحتفالات. وأما الطلاق فيحصل من جانب واحد أي طلاق الرجل لزوجته. ويمكن للأرملة والمرأة المطلقة الزواج مجدداً بعد مدة معينة. بيد أنه، وبرغم أن الشريعة الإسلامية توصي بمعاملة المرأة بعدل وإحترام وأن تعيش من حيث المبدأ في نظام يسمح لها بفصل أموالها عن

أموال زوجها إلا أن القرآن الكريم يفرض بأن شهادتها في المحكمة تساوي نصف شهادة الرجل ولا يعطي النساء عند حصر الإرث إلا نصف ما يناله الرجل. ومن جهة أخرى فإن السلطة التي يتمتع بها رب العائلة تخفض من الإمتيازات التي منحتها الشريعة الإسلامية للمرأة.

الأولاد.ـ لقد شجب القرآن العادة القديمة المتبعة في الجاهلية والتي كانت تقضي بوأد البنات عند ولادتهن ودفنهن أحياء. والختان، يرغم أن القرآن الكريم لا يلزم به وقد كان متبعاً لدى عرب الجاهلية ولدى اليهود غير أنه يتم في الفترة ما بين سن السبعة أيام و١٥ سنة. وعلى الأولاد أن يقدموا فروض الإحترام لوالديهم.

على أن الأيتام يجب إعارتهم إهتماماً خاصاً وإدارة أموالهم بأمانة، كما يجب معاملة الأرقاء معاملة حسنة. وإذا رغبوا بالعتق وكانوا جديرين به فينبغي أن ينعموا بحريتهم وتلبية طلبهم.

الإرث.ـ إن قوانين الإرث التي حددها القرآن بدقة هي لصالح القرابة من جهة الأب. وفي هذا المجال فإن المرأة التي كانت محرومة من أية حقوق قبل الإسلام أصبحت تنال نصف حصة الرجل كحصتها من الإرث. وحيث أن إمكانية كتابة وصية هي ضئيلة فكثيراً ما كان يُلجأ إلى مداورات قانونية لبلوغ هذا الهدف.

ج ـ الأوامر الجزائية

إن المخالفات الجنائية تقسم إلى نوعين: ١ ـ القتل أو الجرح العمد ويعاقب عليهما بشريعة الذّحل (أي العقوبة بمثلها) وهي عادة وثنية لَطّفها القرآن الكريم. ٢ ـ الجرائم الأخرى: السرقة وتعتبر شائنة وعقابها يفوق العقاب المتبع أيام الوثنية (بتر اليد اليمنى)، اللصوصية وقطع الطرق ويعاقب عليها بالموت، الزنا ويعاقب عليه بالجلد، تعاطي المسكر وهو ممنوع، إلخ.. وتبقى المخالفات الأخف وطأة التي تستحق التعنيف.

د ـ الحياة المدنية والجماعية

إن النتيجة الطبيعية الناجمة عن كون الإسلام هو دين ومجتمع ودولة في الوقت نفسه هي أن الحياة الإجتماعية الإسلامية مبنية على مفهوم «الطائفة» الدينية والمدنية أي الأمة،وهذا المفهوم يخضع القبائل والأمم الجغرافية والأعراق

كافة لمبدأ أعلى هو مبدأ الأخوة الدينية والتضامن بين المؤمنين. وهـذا هو الهـدف السياسي والإنساني الذي وضعه النبيﷺ نصب عينيه.

لكن من حيث التـطبيق فـإن هـذا الهـدف سـوف يكـون صعب المنـال. فالفرديـات القبلية والقـوميات الإقليميـة التي يصعب إندمـاجها سـوف تؤدي في النهـاية إلى إطـاحة النـظام السياسي الـذي بناه الإسـلام. إذ أن المبدأ الـطائفي الـذي يقضي بأخـوة المسلمين ومساواتهم لن يلبث أن ينهار عنـد موت النبيﷺ وتحـل محله هيمنـة العـرق العـربي وبـالأخص عـرب الحجـاز، والـذين أسـوة بالرومـان الأولين، إستـأثروا بـالحق الحصري بـالقيادة وإمتيـاز إدارة أمبراطـورية الخلفاء السياسية.

إن هذا الطموح بدأ «بتعـريب» العالم الإسـلامي الواسـع وبخاصـة العالم الشرقي بفضل اللغة العربية وهي اللغة الـطقسية لـلإسلام. وبـالفعل وبفضـل اللغة العربيـة فضلاً عن أداء الفـروض الدينيـة، وَعَت الأمة الإسـلامية ذاتهـا. وإن الصلوات الشعائرية وصوم رمضـان المبارك والحـج إلى مكة المكـرمة وتمـاثل مجمـوعة القـوانين والنـواهي الغذائيـة من طعام وشـراب ونظام الحـريم العائـلي والتقويم الهجري والسنة القمريـة والأحوال الشخصيـة، إلخ... كلهـا عوامـل أفضت بـين مختلف شعـوب العـالم الإسـلامي إلى روابط إجتمـاعيـة وعـاطفيـة مشتركة إن لم يكن التضامن السياسي.

وبرغم أن منع الصور والأيقونات الذي عرفته كنيسـة الشرق المسيحيـة في عهـد الأمبراطـور لاون الثالث (٧١٧ ـ ٧٤١) لا يـرد ذكره صـراحـة في القـرآن الكريم بيد أن رسم المخلوقات الحية تم منعه. وأما في الواقع فـإن هذا الحظر لم يُلتزم به قط،فصور تمثـل الناس والحيـوانات تمـلأ الفن الإسلامي. كـما أن التصوير الشمسي شبه عام اليوم في البلدان الإسلامية.

النشـاط التجاري نـظم بدقـة وحورب الغش وحـرم إقراض المـال بالـربا (فائدة ربوية). وكانت المدينة الإسلامية تتضمن عنصرين أسـاسيين همـا المسجد والسوق أي الدين والعلم القرآني والتجارة.

هـ ـ السلطة التنفيذية

إن السلطة التنفيذية في المجتمع الإسلامي الذي هو تيوقراطية علمانية أو ديمقراطية تيوقراطية (إلهية) فلا تخص إلا الله ولا يمارسها إلا مندوب عن الله. وهذا المندوب الأول كان النبيﷺ وسوف يكون بعد موته خليفته. وبإستثناء أن يكون

عضواً في الأسرة القريشية مما كان مطلوباً أولاً على الأقل، من حيث التقليد لم يكن هناك أي شرط آخر مطلوباً للوصول إلى منصب الخلافة. فعلى المرشح أن يكون بالطبع مسلماً وسليم البنية والعقل. وسلطة الخليفة هي روحية وزمنية في آن معاً وهي كسلطة النبيﷺ مطلقة وغير محدودة.

و ـ الخلقية الإسلامية

أخذ بعضهم على الخلقية الإسلامية الناجمة من عامل الخوف من العقوبات الإلهية وأملاً بالمكافآت السماوية، أنها «مساومة الوعد بالمكافآت». فبهذا العقد القضائي بين الله والإنسان والذي بموجبه يحصل الإنسان على ثمن لأعماله الصالحة، فإن المؤمن في هذه الحال يقوم بمساومة ناجحة «وعملية مربحة» جزاء على حسن أعماله.

إن هذا المأخذ يمكن توجيهه إلى معظم الديانات الكبرى بما فيها اليهودية والمسيحية وما الإسلام سوى أخ لها. صحيح أن الإسلام يحث على الشعور بشكر الله على النعم التي منحنا إياها مما يحثنا على حب الله. إن الجحيم هو مكان مخصص لمعاقبة الأشرار في حين يذهب الأبرار إلى الفردوس وبخاصة شهداء الجهاد الإسلامي. من جهة أخرى فإن الخلقية الإسلامية هي دينية أكثر منها إجتماعية. فالإنسان عندما يفعل الخير مع أقرانه ويعطي الفقراء فهو يقرض الله. «إن هذا النوع من الإحسان لا علاقة له البتة بحب الغير» (أندريه).

إنما علينا الإعتراف وبرغم أن الحياة الدينية الإسلامية ذات طابع مشروط، إلا أن هذه الخلقية القرآنية هي من أصفى الخلقيات. فالإسلام مارس فضائل حقيقية وبخاصة في المجال الإجتماعي: المساعدة وحسن الضيافة والكرم والأمانة للتعهدات المتخذة حيال أعضاء الطائفة والإعتدال في الرغبات والزهد أو البساطة في المأكل والمشرب.

إن القرآن الكريم يوصي بكل ما فيه خير ويمنع كل ما فيه شر. لكنه يحسب حساباً كبيراً لضروريات الحياة والمتطلبات التي يمكن لمعظم الناس تحملها. فخلقيته ترمي إلى واقع الأشياء وليس إلى مثل أعلى يتعذر على غالبية الناس بلوغه.

إن الحافز الكبير للخلقية الإسلامية هو بالفعل مصلحة المجتمع

البشري. ولفهم أفضل لبعض تعاليم القرآن الكريم علينا أن نعود إلى العصر الذي نزل فيه الوحي وإلى الوضع الإجتماعي الذي كانت تعيش فيه شعوب جزيرة العرب المعنية بالدرجة الأولى.

فبالإجمال إنه يتلاءم بشكل رائع مع شعوب جزيرة العرب الأولين الذين كانت حياتهم غير مؤمنة ومحمية وسط أخطار من كل نوع (نقصان، تقنين جبري...). فقد كانت الحكمة تقضي بالإبتعاد عن فرض أنواع من الحرمان أو العقوبات على البدو في الوقت الذي كانت فيه الظروف الطبيعية في بلادهم تحكم عليهم بالحياة البائسة.